

اكتساب اللغة

(مقاربة توليدية تحويلية)

عبد السلام شقروش

قسم اللغة العربية

جامعة باجي مختار - عنابة

ملخص

تبنّت النظرية التوليدية التحويلية الفلسفة العقلية لتفسير عملية اكتساب اللغة، معارضة بذلك التفسير السلوكي الذي يعتمد الفلسفة التجريبية (empirique). وقد استند تشومسكي في معارضته للسلوكية على مبدأ عدم التكافؤ بين المدخلات والمخرجات، الذي اصطلح عليه بـ "فقر المحفز" (poverty of stimulus)، ويتجسد هذا المبدأ في صور ثلاث: ضالة التحديد، والتدني النوعي، وغياب الدليل السلبي. ويذهب تشومسكي إلى أن الإنسان قد خص فطريا بجهاز اكتساب اللغة (LAD) *langage acquisition device*، المتكون من مبادئ ثابتة في كل لغة ووسائط متغيرة. ويقتصر عمل المجتمع على مساعدة المكتسب على تثبيت الوسائط من خلال تعرضه للتجربة، لا على بناء نظامه اللغوي.

Résumé

مقدمة:

يكتسي موضوع اكتساب اللغة أهمية كبيرة في اللسانيات الحديثة، إذ كثيرا ما مثل هذا الموضوع الحد الفاصل بين المدارس اللسانية، وفي هذا السياق يذهب عبد السلام المسدي إلى أن "أكبر حدث لساني معاصر، وهو المتمثل في بروز المدرسة التوليدية التحويلية، إنما هو ناتج عن موقف مبدئي من موضوع اكتساب اللغة"⁽¹⁾. وقد مثلت التوليدية التحويلية معارضة واعية للبنوية السلوكية في مسألة اكتساب اللغة، إذ ترفض هذه الأخيرة مذهب السلوكية في إرجاع كل المكتسبات المعرفية، بما في ذلك المعرفة اللغوية، إلى التجربة؛ لأن محدودية تجربة الطفل من حيث الزمان، وكذا المادة المتعرض إليها تجعلها لا ترقى إلى مستوى ما يمتلكه.

ولقد أحالت هذه الإشكالية تشومسكي على السؤال المحير الذي طرحه أفلاطون، وهو كيف نفسر قلة تجربة الإنسان قياسا بسعة معرفته؟ هذه المشكلة

Dans son explication de l'opération d'acquisition du langage, la théorie générative transformationnelle a adopté la philosophie mentaliste, se mettant de ce fait en opposition avec l'explication behavioriste qui s'est, quand à elle, basée sur la philosophie empirique. Chomsky s'est appuyé, dans son opposition à la théorie behavioriste, sur le principe de non équivalence entre les in-put (entrées) et les out-put (sorties), qui est généralement appelé "pauvreté de stimulus", et qui est déterminé par trois formes:

1- sous détermination,
2- diminution typique, 3- absence du modèle contraire. L'homme, selon Chomsky, est doté de façon innée d'un appareil de l'acquisition du langage appelé (LAD), constitué de principes fixes et de paramètres mobiles. Chomsky affirme que le rôle de la société se limite à aider l'apprenant à fixer les paramètres en le soumettant à l'expérience, non en construisant son système linguistique.

كما صاغها الفيلسوف البريطاني برتراند راسل في أعماله الأخيرة وهي :

"كيف يمكن لأفراد النوع البشري أن يعرفوا ما يعرفونه على الرغم من قصر تجربتهم مع الكون، ومحدوديتها؟"⁽²⁾.

وتمثل المعرفة اللغوية حالة خاصة من التساؤل الأفلاطوني، فإذا كان التساؤل الفلسفي يبحث في نظام المعرفة عموماً، فإن المعرفة اللغوية تمثل مظهراً من مظاهر هذه المعرفة، وتعد ظاهرة اكتساب اللغة حالة خاصة من التساؤل الأفلاطوني⁽³⁾.

فقر المثير:

يذهب تشومسكي إلى أن نظام القواعد الذي يمتلكه متكلم اللغة أكبر بكثير من المادة التي يكون قد تعرض إليها أثناء عملية اكتسابه للغة؛ أي أن المادة المقدمة في المدخلات لا تساوي المنتجة في المخرجات فـ "للطفل تجربة محدودة وقاموساً صغيراً من المفردات وأشباه الجمل والعبارات الناقصة لا تخوله أن يبني بطريقة الاستقراء نحوه اللغوي، لأن عملية البناء تتطلب أشياء أخرى ومعرفة كبيرة بالتراكيب اللغوية وتراكيب العبارات وبمرفولوجية اللغة وسيمنطيقها وسيميولوجيتها"⁽⁴⁾، وقد استند تشومسكي في رده للفرضية التجريبية على دليل سماه "The Poverty of stimulus" "فقر المثير"⁽⁵⁾، إذ لو كانت اللغة تكتسب بالمثير والاستجابة، وسلسلة العمليات التشريطية، كما تذهب إلى ذلك المدرسة السلوكية، لكان المثير في مستوى الاستجابة، على اعتبار أن الاستجابة ينبغي أن تكون مساوية للمثير تطبيقاً لمبدأ: لكل قوة رد فعل مساو لها في المقدار ومعاكس لها في الاتجاه، ويتمثل فقر الحافز في أوجه ثلاثة هي:

ضالة التحديد - Underdetermination

التدني النوعي - Degeneracy

الدليل السلبي - Negative evidence

1 - ضالة التحديد: أي أن المدخلات لا تحدد النظام القواعدي النهائي، وذلك لأنها أقل من المخرجات، وهذه الإشكالية هي أهم الأوجه الثلاثة الممثلة لـ "فقر الحافز" حيث نجد الطفل ينتج بنى تركيبية وفقاً لقواعد لم يكن قد تعرض إليها من قبل؛ أي ذات خصائص لا يمكن إرجاعها إلى التعليم، فبنية القواعد الثاوية وراء استخدامنا للغة أكبر بكثير من الجمل التي يتعرض لها الطفل في سنين اكتسابه للغة. وقد مثل لذلك تشومسكي بشواهد نماذج من البنى التركيبية كالاستفهام، والمصدر نورد بعضاً من مقابلاتها العربية:

أ - الحدود على حركة أسماء الاستفهام، وهي قضية من التعقيد بحيث يستبعد أن يحيط بها الطفل عن طريق القياس والتعميم، على اعتبار أن البنوية السلوكية تعمل على ردم الفارق بين المدخلات والمخرجات عن طريق القياس والتعميم.

فمن المعروف أن اسم الاستفهام ينتقل إلى بداية الجملة في العربية - بمختلف صيغها الفصحى واللهجات المحكية - من موضعه الأصلي داخلها، وتطبق هذه القاعدة على الجمل البسيطة والمركبة كما في:

رأى محمد زيدا في السوق
من رأى محمد ... في السوق؟

أ

ظن علي أن محمدا رأى زيدا في السوق
من ظن علي أن محمدا رأى ... في السوق؟

ب

ظن علي أن محمدا قال إن زيدا رأى مصطفى في السوق
من ظن علي أن محمدا قال إن زيدا رأى ... في السوق؟

ج

صدق محمد دعوى أن زيدا رأى مصطفى في السوق
من صدق محمد دعوى أن زيدا رأى ... في السوق؟

د

فالجملـة "د" غير صحيحة غير أن "المادة اللغوية التي يسمـعها الطـفل ليس فيها ما يـنبئ أن الجملـة "د" تختلف عن الجملـة الثالث الأولى في صـحة صياغتها، كل ما هنالك أن الطـفل لا يسمـع مثلها، في حين أنه قد يكون سمع الجملـة الأولى . ولو أن الأمر قياس وتعميم لكان من المتوقع أن يقيس الطـفل "د" على مثيلاتها الجملـة المركبة "ب" و "ج" لكن هذا لا يحدث" (6).

وقد ذهب تشومسكي إلى أن تجارب أجريت على أطفال لهم لغات مختلفة ولم يقـعوا في مثل هذا القياس؛ أي أن هذا القيد على حركة اسم الاستفهام ليست مما يتعلمه الطـفل في اكتسابه اللغـة، فلا بد أنه نتيجة عمل الجوار النحوي الفطري الذي يقضي بعدم صحة حركة اسم الاستفهام من داخل عبارة اسمية (هي في هذا المثال دعوى أن زيدا رأى في السوق) إلى أول الجملـة (7).

وليس معنى ذلك أن الطـفل لا يستعمل القياس، أو أن قياساته كلها خاطئة، ولكن فقط هناك بعض القضايا التي تقتضي القياس، ويؤدي القياس فيها إلى خطأ تركيبـي، فنجد الطـفل ينحاز عن القياس فيها من غير علة ظاهرة. واللافت للانتباه أن مثل هذه الظواهر تعم الأطفال من لغات مختلفة مما يجعلها ظاهرة جديرة بالاهتمام. كذلك نجد في الضمائر الانعكاسية ما يدعم الفرضية الفطرية ويؤكد أن هذه الجوانب من المعرفة تتجاوز المدخلات، كما في الشواهد الآتية:

1 رأى محمد نفسه في المرآة.

2 على نفسها جنت براقش.

3 رأى نفسه محمد.*

4 طلب محمد من علي أن يعتمد على نفسه.

5 قاتل محمد إن عليا اعتمد على نفسه.

6 قاتل محمد إن عليا اعتمد على نفسه.*

7 وعد محمد عليا أن يعتمد على نفسه .

8 محمد يظن أن نفسه سعيدا.*

9 محمد يظن نفسه سعيدا

فالجملـة (3) لاحنة لأن الضمير الانعكاسي يعود على سابق ولا يسبق العائد.

والجملـة (6) لاحنة لأن الضمير عاد على (محمد) وبالتالي خرج عن الجملـة المكتتفة (*).

والجملة (8) لاحنة لأن الضمير عاد على اسم خارج الجملة المكتتفة، والشرط في العوائد anaphors ومنها الضمائر الانعكاسية أن تعود على عنصر من الجملة نفسها وفق نظرية الربط (***) binding theory. إن الطفل لا يتلقى توجيهات ولا إرشادات لتحديد أي الجمل نحوية، وأيها غير نحوية (لاحنة)، ومع ذلك يستطيع أن يستنبط البنى التركيبية للغة من المدونة التي يتلقاها.

إن مبدأ التعميم والقياس لا يمكن بحال من الأحوال أن يفسر كيفية استخلاص الجمل الصحيحة من الخاطئة في مثل ما سبق، إذ الضمائر الانعكاسية أمر بالغ التعقيد، ومع ذلك يتمكن الطفل من امتلاك الكفاءة الأدائية فيها من غير تعليم.

إن التمييز بين الخطأ والصواب في مثل ما سبق لا يتلقى فيها الطفل توجيهات في مراحل اكتسابه الأولى، كما لا يتعرض له في المدرسة، لأن مثل هذه القضايا لا تشغل بال التعليميين على اعتبار أنها من المسلمات، ومما لا يدخل مجال الخطأ فيه، وهو كذلك دليل على أن المادة المقدمة أقل من أن تنتج نظاما قواعديا في مستوى تعقيد النظام القواعدي اللغوي.

كما يمكن أن نمثل لفقر المثير في شقه الأول (ضألة التحديد) بالفونولوجيا، فمتكلمو اللغة يعرفون من بنيتها الصوتية أكثر مما يتلقونه من التجربة، حيث يذهب تشومسكي إلى أن قواعد البنية الصوتية تعتمد في جزء كبير منها على "مبادئ تحكم الأنظمة الصوتية الممكنة للغات البشرية، وتحدد العناصر المكونة لها، والطريقة التي تتألف بها، والتغيرات التي تحدث لها في السياقات المختلفة ... وهي جزء من الملكة اللغوية الفطرية"⁽⁸⁾.

إن الخيارات الصوتية المتاحة فيزيولوجيا لا نهائية، ولكن اللغات جميعها على اختلافها قد اختارت مجموعة محدودة من الفونيمات، حيث أثبتت الجمعية الصوتية أن مختلف اللغات في العالم لا تخرج عن حوالي خمسين فونيم.

وكذلك بالنسبة لاستراتيجية بناء النظام الصوتي، حيث نجد الطفل يتعرض لملايين الألفوفونات (***)، ومع ذلك يستطيع أن يستخلص منها عددا صغيرا جدا من الفونيمات لا يتجاوز الأربعين في أغلب الحالات، فكيف يتسنى له ذلك لو لم تكن هناك ضوابط فطرية توجهه لوضع فرضيات معينة ونفاذي أخرى إذ لو استعرض كل الاحتمالات الممكنة لاستخلاص فونيم من جملة الألفوفونات لأفنى عمره من غير أن يبني نظامه الصوتي.

وبما أن اللغة تقوم على المغايرة والاختلاف كما يذهب إلى ذلك دو سوسير فالأجدر أن تكون الفروق واضحة حتى لا يحدث الالتباس فلماذا تلجأ اللغات إلى اختيار فونيمات متقاربة الصفات، أو المخارج من مثل (ض،ظ) و(ط،د،ت) و(ذ،ث)، مع إمكانية اختيار المتباعدة حتى لا يحدث التباس.

ومن الأدلة على عدم التكافؤ بين المدخلات والمخرجات، اكتساب الطفل لمفردات لغته، إذ كيف يتسنى له أن يتعلم في إحدى مراحل اكتسابه ما يزيد عن عشرة كلمات يوميا، مع العلم أن مفهوم الكلمة ما يزال يكتنفه الغموض، فاكتساب أشياء غير محددة تحديدا دقيقا دليل على أن التجربة لا تعني كل شيء بالنسبة للطفل "إن الطفل تتوفر لديه بكيفية ما بعض المفاهيم قبل أن يمر بتجربته اللغوية، وأن ما يقوم به أساسا ليس إلا تعلم أسماء لتلك المفاهيم التي تكون جزءا من تركيبه المفهومي المسبق"⁽⁹⁾، وتبني جملة المفاهيم من خلال انتظام الإوليات (primitives) المفهومية كالإرادة، والتسبيب، والهدف، والقصد، ... ثم تظهر الكلمات معبرة عن جملة العلاقات بين هذه المفاهيم الأولية. ويؤكد ذلك ما سمي (الحقائق التحليلية)⁽¹⁰⁾ التي لا نحتاج في التثبت من صدقها إلى معرفة التجربة مثل جملة: " اغتال زيد عمرا "

فهي تعني أن هناك قصدا في القتل، وأن القتل حصل مخاتلة، وهذه المعرفة صحيحة من غير تجربة لأن صحتها مستمدة من معرفة معنى الكلمة، وهذا الحكم يعتمد على التركيب المفهومي السابق للتجربة⁽¹¹⁾، ومعرفة مثل هذه الجوانب وغيرها مما يتعلق بماهية ما تحيل إليه الكلمة، وما صدقها، أو الجوانب المختلفة للبنية المعجمية التي يكتسبها الطفل أكبر من أن تغل بالتجربة المحدودة التي يتعرض لها الطفل؛ لأنها من الغنى والتعقيد بحيث لا تطمح القواميس الأكثر تطورا أن تحيط بها، إذ لو قضى الإنسان كامل حياته ما استطاع أن يتعرض إلى كل ما تحمله لفظة واحدة من جوانب معجمية⁽¹²⁾.

ونمثل لضالة التحديد بالخطأ الآتية:

| | | | | |
|-------------|------------|-----------|---|---------|
| مدونة ناقصة | $0 = س$ | أداء ناقص | ← | رقم (1) |
| مدونة ناقصة | $0 \neq س$ | أداء تام | ← | رقم (2) |

فلو كان الطفل كالورقة البيضاء - كما ترى الوصفية السلوكية-، لكانت المدخلات مساوية للمخرجات كما في الرسم (1)، أما والأمر ليس كذلك- فقد جاءت المخرجات مخالفة للمدخلات كما في الرسم رقم (2)، وما دام الأمر كذلك فهو دليل على فرضية فطرية اللغة التي ذهب إليها تشومسكي.

التدني النوعي:

والمقصود به أن المادة اللغوية التي يتعرض لها الطفل في مرحلة اكتساب اللغة تكون مشوشة، وذلك لأن ما يتعرض له الطفل هو أداء الآخرين، وليس كفاءتهم، والأداء لا يكون مطابقا تماما للكفاءة، وذلك لتدخل عوامل خارجية كثيرة من جهة؛ من مثل لفت الانتباه، وعدم التركيز، وضعف الذاكرة،...⁽¹³⁾ ومن جهة أخرى لأن الأداء هو نتاج تفاعل عوامل ونظم عديدة، فلو لاحظنا حوارا عاديا يجري بين اثنين أو أكثر لوجدناه يكاد يفتقر إلى الجمل التامة المضبوطة غير المقطعة، إذ الطابع الغالب على الأحاديث العادية هو التكرار، والتغيير الفجائي، والاعتراض، والانتقال،... والانقطاع لبدء فكرة جديدة، أو العودة إلى فكرة سابقة،... ويحدث ذلك لأن عملية التواصل لا يعول فيها على الجانب اللغوي فحسب، بل تتدخل فيها وسائل إيضاح كثيرة، فتتداخل الرسائل اللغوية مع السيميائية مشكلة لوحة منسجمة متناغمة يدعمها النزوع نحو الاقتصاد في الجهد، وكل هذا لا يجعل المتخاطبين يحسون مع هذا المزيج بالانحراف أو النشاز. ولكن الدارس عندما يعزل الجانب اللساني من الرسالة عن الجانب غير اللساني يجد فراغات، وانقطاعات كثيرة.

فإذا كانت هذه هي حال المدونة التي يتلقاها الطفل، فكيف سيؤسس نظامه اللغوي استنادا إليها لوحدها، إذ لو كان الطفل يولد وهو صفحة بيضاء كما ترى السلوكية، لكانت المخرجات مساوية للمدخلات

| | | | | |
|-------------|---|---------|---|-----------|
| مدونة مشوشة | ← | $0 = س$ | ← | أداء مشوش |
|-------------|---|---------|---|-----------|

أي أن الطفل لا يتمكن من بناء نظامه اللغوي الذي يؤهله للتواصل مع مجتمعه.

غير أن الواقع يؤكد غير ذلك، فعلى الرغم من التشويش أو التدني في المدونة التي يتلقاها الطفل من جهة ونقص المعطيات كما ورد في ضالة التحديد من جهة أخرى، إلا أنه يتمكن من بناء نظامه اللغوي بمختلف مستوياته اللسانية، وهذا ما يؤكد الفرضية الفطرية التي أخذت بها التوليدية التحويلية.

| | | | | |
|-------------|---|------------|---|-----------------------|
| مدونة مشوشة | ← | $0 \neq س$ | ← | أداء منظم (غير مشوش). |
|-------------|---|------------|---|-----------------------|

2 - غياب الدليل السلبي: والمقصود بالدليل السلبي وجود دليل أمام الطفل يستدل به على عدم صحة تركيب من التراكيب، أو جملة من الجمل التي تحويها المادة التي يتعرض لها خلال اكتساب اللغة، فإذا كان اكتمال النظام القواعدي لدى الطفل معناه اكتساب كفاءة؛ أي مقدرة على التمييز بين الجمل الصحيحة وغير الصحيحة، فكيف سيكتسب الطفل المقدرة على معرفة الجمل غير الصحيحة، إذا كانت المدونة تفتقر إلى ذلك؟ ويقارن جون ليونز الاكتساب اللغوي - في حالة غياب الدليل السلبي - بعمل باحث في نشاط معرفي ما؛ حيث يقول: « نفترض أن هناك عالماً أخذ في دراسة مادة تحتوي على نسبة خطأ قدرها 20% من هذه المادة، ولكنه لا يدري في أي جزء من أجزاء هذه المادة العلمية تقع هذه النسبة، لا شك أنه سيواجه موقفاً صعباً، بل إنه سيواجه مصاعب جمة»⁽¹⁴⁾ وعليه فكيف يتمكن الطفل من معرفة الجزء غير الصحيح في المادة المعروضة عليه والذي يمثل جانبا من كفاءته اللغوية؟

هناك احتمالان لاكتساب هذه المعرفة (تجريبياً)

1 - أن يضع الطفل فرضية أن:

- الخطأ هو ما لا يتلقاه: معنى ذلك أن الذي يتلقاه الطفل من المجتمع يمثل الجانب الصحيح من اللغة، والجانب المغيب هو الخطأ.

ولكن ديكرارت يذهب إلى أن اللغة تتميز بما يعرف بـ " المظهر الإبداعي « فإن المتحدث في الحالات السوية لا يقوم بتكرار ما سمعه بل ينتج أشكالاً لغوية جديدة وهي في الغالب جديدة في كلام المتكلم هذا، أو حتى في تاريخ تلك اللغة»⁽¹⁵⁾. وهذا يتعارض مع الفرضية السابقة، إذ ما ينتجه الطفل هو ما لم يسمعه، فلو استندنا إليها لصار كل ما ينتجه الطفل غير صحيح، وحسب البرهان بالخلف فإن الفرضية السابقة خاطئة.

ومن ناحية ثانية لو أخذنا بهذه الفرضية لخطأنا كل ما لم نسمعه من قبل، وهذا ما لا يتفق مع الواقع.

2- نفترض أن:

- الطفل يتعرض لعملية التصويب: وينقسم هذا الاحتمال إلى شقين.

أ- هناك جزء من اللغة (المرفوض) يخطئ فيه الطفل فيتعرض إلى التصويب.

ب- هناك جزء (من المرفوض) لم يتعرض له الطفل لذلك لايتلقى فيه التصويب.

أما الجزء الثاني (ب) فحاله مثل حال الاحتمال الأول أي ما لا يتلقاه الطفل وقد عولج سابقاً.

أما (أ) فالطفل في الحالات العادية لا يتعرض إلى عملية التصويب إلا في حالات نادرة، لأن الكبار يهتمون بالجانب الدلالي مما يقوله الطفل ولا يهتمون بالبنى التركيبية « فالأم في التنوع الدلالي، لا تستعيد عبارة الطفل لتغنيها وتصحيحها، بل تؤدي عبارة مختلفة في المحادثة بفكرة جديدة ترتبط بالفكرة التي يعبر عنها»⁽¹⁶⁾،

ويستبعد تشومسكي دور الأسرة في تصحيح أخطاء الطفل ويقصر دورها على ما يسمى بالتوسيع Expansion⁽¹⁷⁾، بمعنى أن الكبار إذا فهموا مراد الطفل تكون عملية التواصل قد حصلت، بل في حالات كثيرة

يُتلقى الأداء اللاحق للطفل بالإعجاب والاستحسان، أما الحالات النادرة التي يتعرض فيها الطفل إلى التصويب، فهو لا يدرك إن كان المراد هو التصويب، أم التأكد؛ أي إن تكرر الكبار لما قاله الطفل هل هو استفهام صدى أم تصويب؟ إذ عادة ما يكون التصويب عبارة عن إعادة لما قاله الطفل بصيغة صحيحة، ولكن كثيراً ما يعيد الكبار أقوال صغارهم إما بالعبارات ذاتها، أو بعبارات قريبة من ذلك. ففي مثل هذه الحال كيف يعرف الطفل أن التكرار

الأول بقصد التصويب والثاني بقصد التحقق ونمثل لذلك بالمجموعتين (أ) و (ب)

1- بابا رايحة نلعب.

أ 2-رايحة تلعبى؟

1-رايحة تلعبى

1-الباب تقفلت

ب 2-الباب تقفل

1-الباب تقفل

ففي الشاهد (أ): -البنت تستأذن الذهاب للعب

-الوالد يستفهم (استفهام صدى)

-البنت تكرر عبارته على اعتبار أنها تصويب

وفي الشاهد الثاني(ب): -الطفل يخبر عن إغلاق الباب

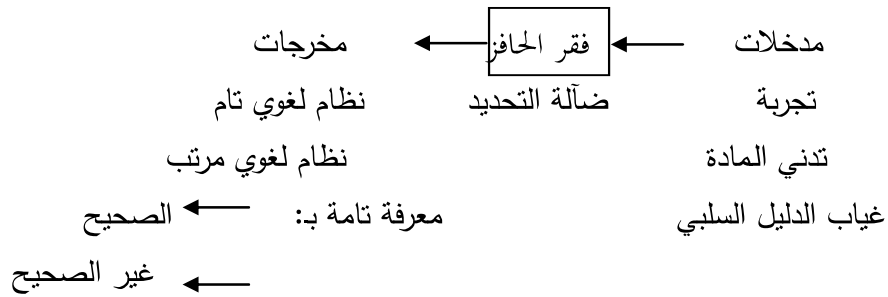
-الوالد يصوب على اعتبار الباب مذكر

-الطفل يعيد الخبر بصيغته الصحيحة

فالطفل في مرحلته الأولى لا يستطيع التفرقة بين المجموعة (أ) استفهام الصدى والمجموعة (ب) التصويب.

وفي جميع الحالات لا نجد حلاً لكيفية اكتساب الطفل الجزء المعرفي اللغوي الخاص بإدراك الجمل غير الصحيحة، أو غير القواعدية.

إن تفسير ظاهرة اكتساب اللغة بعدم إرجاعها إلى الفرضية الفطرية، يجد في كثير من توجهاته، وتخرجاته انسدادات لا سبيل لاختراقها، ففضية فقر الحافز بأوجهها الثلاثة، ضالة التحديد، وتدني المادة، وغياب الدليل السلبي تؤكد أن المدخلات غير مساوية للمخرجات.



نجد في هذه الخطاظة أن جهة المدخلات تتسم بالسلبية (-) وجهة المخرجات تتسم بالإيجاب (+) .

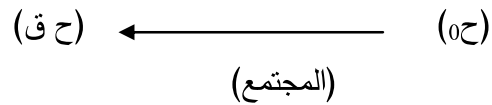
ضالة التحديد أي نقص المادة المقدمة يقابله بناء نظام لغوي تام، وتدني المادة أي تشوش تام في المادة المقدمة يقابله نظام لغوي مرتب، وغياب شواهد وأدلة على الخطأ يقابله معرفة تامة بالصحيح والخطأ. وهذا مما يؤكد بأن الطفل لا يولد وهو صفحة بيضاء خالية من أي شيء، بل ومما يزيد هذه الفرضية تأكيداً أن ما يتعرض له الأطفال في المجتمع الواحد يختلف من بيئة إلى أخرى، ومع ذلك فالمخرجات متشابهة، أي الحالات النهائية للنظام المكتسب من قبل الأفراد في المجموعة اللغوية الواحدة.

ويقترح تشومسكي الفرضية الفطرية حلا لمشكلة أفلاطون (في شقها اللغوي) المعبر عنها بفقر الحافز؛ حيث يذهب إلى أن "الجانب الأكبر من النظام اللغوي الذي يكتسبه الإنسان، هو جزء من موهباتنا البيولوجية التي وهبناها، والتي تميزنا كجنس من الأجناس الإحيائية، مثلما هو الأمر بالنسبة لنظام الإبصار الذي لدينا والذي يختلف عن نظام الإبصار عند الضفادع مثلا، أو وجود يدين تختلفان في خصائصهما عن خصائص أيدي الزواحف، وعلى هذا فالمعرفة اللغوية متأسسة في العقل البشري ومحددة إلى درجة كبيرة، وترسم هذه الحدود خصائص يمكن أن تعرف بخصائص اللغة البشرية، ويقوم على ذلك كله مكون من مكونات العقل، نطلق عليه الملكة اللغوية"⁽¹⁸⁾.

إن لجوء تشومسكي إلى الفرضية الفطرية ليس هروبا إلى الأسهل كما يحل للبعض أن يتصور المسألة، ولكن هذا الافتراض سيؤدي بنا إلى الانشغال بموضوع المعرفة اللغوية من حيث طبيعتها، وبنيتها، وخصائصها "ومن هنا لا بد لهذا الدرس أن يقدم تصورا واضحا للملكة اللغوية المسؤولة عن نمو النظام اللغوي المعرفي الذي يكتسبه الإنسان"⁽¹⁹⁾.

تذهب النظرية التوليدية التحويلية إلى أن الملكة اللغوية تمر بحالات عديدة انطلاقا من نقطة الصفر الحالة الابتدائية (initial state S_0) (ح₀)، إلى نقطة النضج اللغوي؛ أي الحالة القارة (ح ق) (steady state S_s)⁽²⁰⁾، أي من مرحلة ما قبل تعرض الطفل للمدونة الاجتماعية، إلى مرحلة اكتساب النظام اللغوي، والتي تمثل حالة قارة؛ أي لا تتعرض إلى تغيرات معتبرة عدا بعض التغيرات الطفيفة. ويتحدد الهدف من الدراسة بوصف الحالة الأولى، والحالة النهائية، وكيفية الانتقال ما بين الحالتين:

لإنجاز



تذهب النظرية التوليدية إلى أن (ح₀) تتمثل فيها الكفاءة اللغوية بخصائص عالية التحديد، ومبادئ كلية تمثل خطوطا عريضة توجه مستقبل بنية النظام اللغوي الذي سيكتسبه الطفل، وأما الاختلافات الحاصلة بين اللغات فهي مرتبطة بالخيارات المعبر عنها بـ: (البرامترات) المتواجدة داخل الأطر الكلية، أو ما اصطلح عليها بالقواعد الكلية Universal Grammar، وهي مجموعة الخصائص العامة التي تحد اللغات البشرية، وبمواجهة الطفل للمادة اللغوية التي يتلقاها من المحيط اللغوي في سني اكتسابه اللغة فإنه يبني شكلا أكثر تحديدا لهذا النظام... وحينئذ تصبح ملكة اللغة في حالتها الثانية التي تختلف عن الأولى بتثبيت بعض البرامترات التي تختلف فيها اللغات فيما بينها، على ما يلائم اللغة التي يكتسبها الطفل⁽²¹⁾ ويستمر الطفل في التغيير إلى أن يصل إلى مرحلة الاستقرار أو النضج. وتمثل المادة اللغوية المقدمة من المجتمع المثير الذي يثبت هذه البرامترات، بمعنى يحدد واحدا من الخيارات المتوفرة في (ح₀)⁽²²⁾.

تذهب التوليدية التحويلية إلى أن الطفل يولد وهو مزود بجهاز خاص فطري⁽²³⁾ يعمل على اكتساب اللغة اصطلاح عليه بـ language aquisition device (LAD)⁽²⁴⁾، (جهاز اكتساب اللغة)، وتقدر شرارة هذا الجهاز من خلال تعريضه للاستعمال اللغوي⁽²⁵⁾، وعمل المجتمع ليس إنشاء النظام اللغوي لدى الطفل، وإنما المساعدة على تثبيت البرامترات المتعلقة بدالة اللغة الخاصة⁽²⁶⁾، أي أن الطفل يولد وهو مزود بجهاز اكتساب اللغة الذي هو عبارة عن أطر منتظمة وفق قانون معين وثابت، ويتشابه البشر جميعهم في النظام الأولي لهذه الأطر⁽²⁷⁾، كما

ترتبط هذه الأخيرة بالبرامترات (المتغيرات) التي تختلف من لغة إلى أخرى. وعمل الطفل في مرحلة الاكتساب اللغوي هو تثبيت هذه البرامترات، أي إعطائها قيمة حقيقية لتأخذ شكلها الثابت النهائي والذي يمثل مرحلة النضج اللغوي. وإذا أردنا أن نمثل لذلك بصيغة صورية نقول: إن اللغات البشرية جميعها لها عبارة جبرية واحدة تمثل شكلها البياني كأن تكون على سبيل الافتراض:

$$\text{تا(س)} = \text{أ} . \text{س}^{\text{هـ}} + \text{ب} . \text{ع}^{\text{ن}} + \text{ج} . \text{ص}^{\text{ك}} + \dots$$

وتمثل (س، ع، ص، ...) المعجم اللغوي الخاص بكل لغة، وتمثل (هـ، ن، ك، ...) البرامترات التي يعمل الطفل على تثبيتها، أي إعطائها قيمة ثابتة بدل انفتاحها على مختلف الاحتمالات، ويتم هذا التثبيت عن طريق فرضيات يضعها الطفل، ويعمل على اختبارها في الميدان من خلال تعريضها للواقع اللغوي الخاص، فتثبت فرضيات وتعدل أخرى في كل مرحلة، إلى أن يصل الطفل إلى مرحلة النضج اللغوي (ح ق) والتي يتم فيها تثبيت جميع البرامترات⁽²⁸⁾.

وينطبق هذا التصور على كافة أنظمة اللغة، من فونولوجية، مورفولوجية، وتركيبية، ودلالية، بل حتى المعجمية منها^(****). وعمل الطفل وهو يكتسب اللغة يشبه إلى حد كبير عمل اللساني الذي يكشف عن قوانين اللغة (وبخاصة اللغة التي يجهلها) ، فهو يضع فرضيات انطلاقاً من استقراءات أولية، ثم يظل يعدل هذه الفرضيات كلما اختبرها ووجد عدم ملاءمتها للواقع اللغوي، من خلال تجارب أكثر من استقراءاته الأولية، كذلك الطفل يضع فرضيات ويعمل وفقها إلى أن يكتشف خطأها فيعدلها بأخرى، ويترك التي لم تتعارض والواقع اللغوي إلى أن يستقر إلى مجموعة معينة من الفرضيات التي تمثل البرامترات الثابتة المعبرة عن لغته الخاصة.

خاتمة:

وما يمكن أن نخلص إليه هو أن التوليديين قد ردوا حجة السلوكيين، في كون الاكتساب اللغوي يتم من خلال المجتمع، وذلك من خلال دليل (فقر المثير) بأوجهه الثلاث، وقد حاولوا إعطاء إجابة عن التساؤل الأفلاطوني في شقه اللغوي من خلال مفهوم القواعد الكلية الفطرية، وقد مثلت حالتنا الملكة اللغوية (ح0) والقواعد الخاصة للحالة القارة (ح ق) هدفاً أساساً للدرس اللساني التوليدي، كما تمثل إجابة عن السؤالين الأولين الذين وضعهما تشومسكي في إطار البرنامج اللساني وهما:

- ما الذي تعنيه معرفة اللغة؟

- وكيف يعرف الإنسان لغته؟

وحال الدرس التوليدي منذ نشأته في الخمسينيات من القرن العشرين إلى اليوم يؤكد ذلك إذ تصب كامل الأعمال التوليدية في هذا الاتجاه أي الكشف عن الحالة الأولى والحالة القارة وعملية الانتقال من الأولى إلى الثانية.

الهوامش:

1- عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981، ص214.

2- تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ترجمة: حمزة بن قبان المزيتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1990، ص 15.

3- Chomsky, knowledge of language its nature origin and use, 1986 , p 51.

4- سامي أدهم، فلسفة اللغة تفكيك العقلي اللغوي، المؤسسة الجماعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص265.

- 5- المرجع نفسه، ص 266.
- 6- مرتضى جواد باقر، مقدمة في نظرية القواعد التوليدية، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2002، ص 34.
- 7- المرجع نفسه، ص 34.
- *- مكتفة: مصطلح استعمله جواد باقر، وقد استعمل حمزة بن قبلان المزيني مصطلح "المدمجة".
- ** - نظرية الربط: هي واحدة من النظريات القالبية التي اقترحها تشومسكي في إطار المبادئ والوسائط، وتعمل على تحديد العلاقة البنوية بين العناصر المضمرة وسوابقها ولها مبادئ ثلاث.
- أ- كل عائد مربوط في مقولته العاملة.
- ب - كل ضمير حر فلي مقولته العاملة.
- ج- العبارات المحيلة حرة.
- انظر: Chomsky, knowledge of language its nature origin and use
و تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ص 56.
- 8- Chomsky, language and problems of knowledge, Cambridge, Mass, MIT press, 1988, p34.
- ***- Allophone أوفون: يترجمه عبد الفتاح إبراهيم بـ البديل أو العوض الصوتي وسعيد الغانمي بـ: التنوعات الصوتية السياقية وإدريس السغروشني بالبديل الصرفي وتتعدد الألفونات باعتبار ثلاث:
- أ/ الجوار
ب/ البصمة الصوتية أي الذاتية.
ج/ عدم إمكانية تكرر الصوت الواحد بكامل مواصفاته.
- 9- Chomsky, opcit, p 28.
- 10- انظر تشومسكي: آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل، تر: عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2009، ص 21 و 95.
- 11- انظر مرتضى جواد باقر، المرجع السابق، ص 40.
- 12- Chomsky, new horizons in the study of language and mind, Cambridge university press 2004, p 36.
- 13- Chomsky, aspects of the theory of syntax, the MIT press, copyright, 1965, p 3.
- 14- جون ليونز: نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1، 1995، ص 249.
- 15- تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ص 16-17.
- 16- حسام البهنساوي، لغة الطفل في ضوء مناهج البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط 1994، ص 80.
- 17- التوسيع expansion: مصطلح من وضع براون وبلوجي 1964 يريدان به نوعا من التصحيح غير المباشر، وذلك بأن يضيف الكبار بعض الكلمات إلى ما يقوله الصغار « وقد أشارت إشارات كازدن ووليز 1979 إلى عدم وجود دور يذكر للتوسيع في اكتساب التراكيب اللغوية » داود عبدو: دراسات في علم اللغة النفسي، مطبوعات الجامعة، الكويت، ط1، 1984، ص 71-72.
- 18- Chomsky, 1988, p 4.
- 19- مرتضى جواد باقر، المرجع السابق، ص 46.
- 20- Chomsky 1986, p 52.
- 21- انظر مرتضى جواد باقر، ص 49.

22- انظر عبد القادر الفاسي الفهري، المعجمة والتوسيط، (نظرات جديدة في فضايا اللغة العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص34.

23- سامي أدهم، فلسفة اللغة، ص265.

24- Chomsky, 1965, p 47.

25- تشومسكي، اللغة ومشكلات المعرفة، ص25.

26- انظر عبد القادر الفاسي الفهري: المعجمة والتوسيط، ص9.

27- المرجع نفسه، ص265.

28- انظر عبد القادر الفاسي الفهري، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص42-45.

*****- المعجم في التقليد البنوي لا يدخل في مستويات التحليل اللساني على اعتبار أنه يمثل قائمة من الكلمات لا تنتظمها بنية محددة، بينما في التقليد التوليدي التحويلي، تتم دراسة وتحليل المعجم بآليات دراسة التركيب على اعتبار أن الكلمة هي عبارة مكبوسة